

الحقوق والواجبات

للكتاب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد

حضرات السادة والسيدات

إذا كثرت المطالبة بالحقوق ، قل العمل بالواجب .

ولا صعوبة في تفسير هذه الحقيقة الواضحة ، لأن البلد الذي يعمل فيه كل إنسان واجبه لا يضع فيه حق من الحقوق ، ولا تدعو فيه الحاجة الى المطالبة بها أو الشعور بتقصها .

فاذا رأينا بلدا يكثر فيه المطالبون بحقوقهم فخير ما تنفع به ذلك البلد أن تذكره بواجباته ، وأن تكرر له حكمة واحدة يترأها في كل مكان ويسمعها في كل مناسبة ، وهي " عليك بالواجب ودع الحقوق تسعي اليك بغير عاء " .

قال لي الزعيم الخالد ، سعد زغلول ، في بعض أحاديثه — ودو أخبر الناس بالوطن الذي يقوده ، ولهذا استطاع أن يقوده — قال ... : " ... أن آتينا الكبرى أننا لا نحمل تبعاتنا وأنا نحاسب غيرنا على واجباتهم ولا نحاسب أنفسنا على واجباتنا . ثم استطرد قائلا : منذ نحو ثلاثين سنة دعونا بفراس مشهور طلبنا إليه أن يقيم مرادق عرس وأوصيناها أن يفرغ من إقامته قبل المساء . وفي عصر اليوم صرنا بالمكان فإذا بالمرادق أكوام من الأخشاب والكراشي والتريات والمصابيح ، ولا مرادق إلا العمدان مفرقة هنا وهناك لا تؤذن بانتهاء قبل أيام ... ما الخبر؟ إن العمال اختلفوا في التنظيم والتقسيم ، فراح كل عامل منهم يشير على غيره بما يعمل وينظروهم تنفيذ الأشارة ، وأضع الكراشي يقول إنه لا يدري كيف يصنعها قبل أن تنام العمدان ، فيأمر من يقيم العمدان أن يقيمنا حسبما يأمره وعلى تليه ... ومعاق التريات في خلاف مع الاثنين ، يقول إن الكراشي ينبغي أن تصفها والعمدان يجب أن تنام هناك ، ولو أقبل كل على عمله لا تنهوا جميعا واستطاعوا أن يفضوا فيما بينهم هذا الخلاف " .

وهذا المثل الصغير يصلح للتعميم في المجال الواسع الكبير ، وهو مجال الأعمال القومية العظمى التي تتوقف على الأفراد ، ومعنى أنها تتوقف على الأفراد أنها تتوقف على قيام كل فرد بواجب من الواجبات .

نص المحاضرة التي أذيعت ما . يوم السبت ٤/٨/١٩٤٥ في البرنامج الثقافي لوزارة الشؤون الاجتماعية

فالذى يطالب الناس بحقه ينبغي عليه أن يكر أن مطالبته بذلك الحق - هي في الواقع مطالبته للآخرين بعمل الواجب .

ومتى ذكر ذلك فعليه أن يذكر أن مطالبته نفسه بإداء واجبه ليس من مطالبته الآخرين بإداء واجبهم ، وأن شيوع هذه العقيدة بين جميع الأفراد يعنيه عن المطالبة بالحقوق ، لأن الحقوق لن تضع في بلد تؤدي فيه الواجبات .

والبحور الذي يدور عليه الأمر كله أن الإنسان لا يعمل لنفسه دون غيره ، ولا يعيش بمصلحته دون مصالح أهل وطنه . فإذا كان كذلك فهو إنسان عليه واجبات وله حقوق ، ولن يكون له حق يطالب به ، إذا قصر في أداء الواجب المفروض عليه ، أما إذا كانت مصلحته وحدها هي التي تعنيه وتمتفرق جهوده - فليس له حقوق ، ولا لوم على أحد إذا فاته الحق الذي يدعيه .

نسمع جمهورا من الناس يطالب الحكومة ببعض الواجبات المفروضة عليها ، ومن المفيد ولا ريب أن تطالب الحكومة بإداء واجباتها ، ولكن لأفائدة على الإطلاق من هذه المطالبة إذا كان الجمهور متفردا في واجباته منصرفا عن مطالبة نفسه بما تفرضه الوطنية الصحيحة عليه . فإذا كانت المسألة مسألة البر بالفقراء فليس هناك ما يمنع الأغنياء أن ينفقوا المال على بناء المدارس والمستشفيات وتحسين الأجور ، وإذا كانت المسألة مسألة السوق السوداء فليس هناك ما يمنع الشارين أن يتفقوا على تبليغ الحكومة أو على الإجماع عن الشراء والصبر على المقاضاة ومصادرة هذا المورد الحثيث من موارد التجارة ، وإذا كانت المسألة مسألة الأخلاق والذائل الاجتماعية فاحتقر المسئولين عن الفساد أي شيء على الطاقة البشرية ، وهو مع ذلك أصعب عقاب يتقيه الأشرار ، قيل عقاب الحاكم والتوازين .

ونسمع النساء يطالبن بحقوق المرأة على الرجال ، ومما لا شك فيه أن المرأة لها حقوق يختلف الاعتراف بها على حسب اختلاف الأمم والعصور .

ولكن مما لا شك فيه كذلك أن المرأة عليها واجبات ينبغي أن تعرفها ، فإن عرفتها فاعمل بها ألزم لها وأقرب إليها من مطالبة الرجال بواجباتهم ، وإن لم تعرفها فليس لمن يجهل واجباته حقوق يلوم الناس على إهمالها .

ونسمع الرجال يتكلمون كثيرا من تصرف النساء في البيوت أو في الحياة الاجتماعية . ولكننا على يقين أن هذا التصرف الذي يتكلمون عليه تقاربه على المرأة يغير موازنة الرجال ، سواء كان هؤلاء الرجال من محارمها أو من العراء عنهم ، ولو استطاع الرجال أن يجمعوا أنفسهم عن بعض ما يشتهون لاستغنوا عن مع النساء ، أو لجاء الامتناع عنهم بغير إكراه ولا دعاء .

وفي هذا العصر الذي كثرت فيه المطالبة بالحقوق لانرى أحدا إلا وهو صاحب حق مفسوخ ، ولا نرى أحدا إلا وهو يتنصل من الواجب ولا يلتفت اليه .

فالجيل الجديد يطالب مثلا بحقه في توجيه المجتمع وفي إدارة الحكومة . ومن الحقائق المفروغ منها أن الأمة ينبغي أن تستفيد من كل جيل جديد في أوانه ، وأن العظمة القوية تعتمد في زمن من الأزمان على كفاءة جيل واحد ، ولو كان أقدر الأجيال . ولكن الحقيقة المفروغ منها قبل كل حقيقة — هي أن الجيل الجديد ينبغي أن ينظر الى غده كما ينظر الى يومه ، وأنه اذا نظر الى غده علم أن الإنسان لا يعمل لوطنه في الخامسة والعشرين أو الثلاثين ثم يقطع عمله في الأربعين أو الخمسين أو الستين . ومعنى ذلك أن القيادة الوطنية واجب على جميع الأجيال والأعمار ، وأن الشباب لا يستحقون حق التشجيع إلا بمقدار ما يستوجبون واجب الطاعة والاحترام وقد تخفى هذه الحقيقة في كل زمن إلا في هذا الزمن الذي انهارت فيه النازية والناشية فماتت هاتان القوتان العظيمتان إلا لأن المرجع فيهما كان إلى ناحية واحدة من نواحي النشاط والكفاءة القومية ، وهي ناحية الحماسة في طبائع الشباب أو طبائع الجيل الجديد . فاندفعت ولم تراجع لأن الشباب لا يعرف المراجعة ، ولم يثبت العصر كما يتخيل بعض الخدوعين أن الجيل الجديد ينفرد بسياسة الأمور . بل أثبت أن الوبال مصيد محتوم للأمة التي ينفرد بسياسة جيل من الأجيال ، ولا فرق في ذلك بين جيل الشباب أو جيل الشيوخ .

وأجهر المطالب صوتا في هذا العصر هي مطالب العمال من أصحاب الأموال .

ونحن نعتقد أن المجر على مطامع أصحاب الأموال فريضة إنسانية ومصالحة وطنية في وقت واحد ، ونعتقد أن العمال طائفة مضمومة الحقوق جديرة بالانصاف . بل نعتقد أن أصحاب الأموال الذين يفقهون مصالحهم الدائمة ومصالحهم البعيدة والقريبة هم الذين يرجون بوفرة المال في أيدي الطبقات على اختلافها ، لأن حركة ابيع والشراء تتوقف على تداول الأموال ، ولا تسلم من الركود إذا انحصرت الأموال في أيدي القليل من الأفراد .

ولكن العمال يظلمون أنفسهم إذا نسوا واجباتهم ولم يذكروا إلا جنتوقيم .

فليس في الأرض قوة تمنع العامل أن يدنر القليل من أجره في الوقت الذي ترتفع فيه الأجور وتكثر فيه الحاجة الى الأيدي العاملة .

وليس في الأرض قوة تكره العامل اكراها على احمال عمله أو تبذير رزقه فيما يضره ويضر أهله ، ولا سيما ذلك العامل الذي يترك حليته لأنه وجد المال الذي ينفقه على حيازة أخرى ، أو على حيازة تذهبه عن واجباته لبيته وأبنائه ومستقبل أيامه .

كذلك نستريح الشعوب المتحصرة في واجباتها الى من ينفخ لها في بوق الحقوق ، ويسكت أممها عن ذكر الواجبات . ومن هنا يكثر فيها الدجالون الذين يجمعون الثروات بالألوف ويقومون ويقعدون بالرئاء لخصاصة الفقراء ، ويكثر فيها الدجالون الذين يرفعون عن الخمر والشهوات وهم غارقون في الخمر والشهوات ويكثر فيها الدجالون الذين يرفعون الصوت بانصاف هؤلاء والعطف على هؤلاء وهم لا يخسرون كثيرا ولا قليلا بذلك العطف ولا بذلك الانصاف .

فاذا كثرت هؤلاء في أمة من الأمم فتلك علامة على أنها متحصرة في الواجبات ، وأنها من أجل ذلك لا تستحق الحقوق ولا تعرف الوسيلة الى بلوغها إن كان لها نصيب منها . وإنما تستحق الأمة حقوقها إذا كثرت فيها التحدث بواجباتها ، وكثرت فيها التنبيه الى طريق تلك الواجبات .

ولهذا اخترنا أن يكون حديثنا الى حضرات المستمعين في هذه الليلة حديثا عن مقابلة الحقوق بالواجبات ، بل حديثا عن طريق الوصول الى الحق وهي القيام بالواجب ... لأن مطالبة نفسي بأداء واجباتي أولى وأسهل إنجازا من مطالبة غيري بأداء واجباته ، فضلا عما في معرفة الواجب من الدلالة على استحقاق الحقوق وعلى قوة الحجج في المطالبة بها والأصرار عليها .

وقد أصبحت في زمن كثرت فيه المطالبة بالحقوق ، فليس أحوج من هذا الزمن الى التذكير بالواجبات . ولكن على يقين من أن قيام كل إنسان بواجبه يعني كل إنسان عن المطالبة بحقوقه ، لأن الحقوق كما قلنا لن تضيع حيث تؤدي الواجبات ، ولكننا لسنا على يقين ولا على شبه يقين ببلوغ شيء من الأشياء حين ننطلق في المطالبة بالحق ونسوق عن القيام بالواجب .

فلنذكر أبدا واجبا يبلغ حقنا ، إن لم يكن حرصا على الواجب لذاته ، وإن الحرص عليه لذاته لآية صادقة من آيات الطبع الكريم .

عباس محمود العقاد